

التزيه بين التشبيه والتعطيل

يجدر التنويه على أن المنزهة هم أهل السنة ومن وافقهم على مقالتهم ، وموقفهم من صفات الله والتعريف به ، وسط بين الغلو والإفراط عند المشبهة والمجسمة وكذلك التفريط فى الجانب الآخر عند المعطلة .

وإذا تسائلنا عن عقائد الناس عندما بدأ الإسلام فتوحاته الكبرى ، فسنجد أن الديانات كانت إما سماوية كاليهودية والمسيحية والمجوسية ، على اختلاف آراء العلماء فيها ، وكذلك ديانات غير سماوية ، نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء ، وقد خالط المسلمون الموحدون من صحابة رسول الله ، ﷺ ؛ أهل البلاد المفتوحة ودعواهم للإسلام ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، فصار الناس أصناف مختلفة من حيث قربهم وبعدهم من عقائد الدين الجديد فى نقائه وصفائه ، فهناك الصحابة وأبناؤهم ، والمسلمون الجدد الذين ما زالوا متأثرين بعقائدهم القديمة ، وثقافتهم الدينية التى آمنوا وتربوا عليها ، بما تحمله من تقاليد وتصورات نشأوا وشبوا عليها ، وكل ذلك غريب عن الدين الجديد ، زد على ذلك من بقى على دينه القديم ، ولكنه اختلط مع الفاتحين الجدد واحتك بهم فى عقائدهم وثقافتهم وجادلهم جدالاً عنيفاً دفاعاً عن نفسه وهويته ، فأخطأ من أخطأ بقصد أو بغير قصد فى فهم وتأويل العقيدة الجديدة ، ومن هنا نشأ التشبيه والتجسيم ، أو النفى والتعطيل كنتيجة نهائية لهذا الاحتكاك الحضارى الجديد ، وتغلغل فى نسيج المسلمين الجدد .

لقد كان للأعراب نصيب فى تشويه التوحيد ، ولغيرهم عن سوء قصد ، فانتشرت الاسرائيليات والروايات والأخبار التى تروج للفكر المادى حول الألهية ، كبديل مقبول لعقائدهم القديمة التى ورثوها من عبادة بوذا أو مانى أو النار والبددة والاصنام والأوثان والكواكب والنجوم . وافتروا على رسول الله الكذب ، وانتشرت هذه الموجه كتيار عنيف بتأثير بعض الفرق الإسلامية فى عقيدة المسلمين .

هذا عن بدايات التأثير والتأثر وسبب دخول الأفكار والعقائد بشكل غير مسبوق على المسلمين وتوحيدهم النقى الذى حفظته عناية السماء (١) .

(١) الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ؛ ص ١٠ .

وقد انتشرت المجسمة فى بيئات متعددة ، وزادت حدتها فى خراسان ، مما جعل بعض علمائها يضجون ، وينكرون هذا التيار ، فنشأ جهم (ت ١٢٨هـ) كرد فعل معاكس فأفرط فى النفى حتى قال : « إن الله لا يوصف بما يوصف به العباد ، ولم يفرق بين الاشتراك فى الاسم ، والاشتراك فى المعنى ، والممنوع هو الثانى دون الأول ، بشرط كونه وارداً فى الشرع » (١) .

وتولى الدعوة للتشبيه جماعة من غلاة الشيعة ، ولم يستمر فيهم طويلاً سيما بعد انخراط علمائهم فى المذهب الاعتزالي ، والحشوية من المحدثين والتي بلغت ذروتها فى المذهب السننى ؛ سيما بعد تبني الدولة للمحدثين والقصاص فى عهد المتوكل العباسى (ت ٢٤٧هـ) ، فقالوا أقوالاً منكراً وصوروا الله على شكل إنسان له أعضاء وأعضاء ؛ إما روحانية أو جسمانية ، وافتروا على الله وأجازوا الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن متأثرين تأثراً كبيراً بالرواقية القديمة والإفلوطنية المحدثه ، ووجدوا فى ظاهر النص ما يساعدهم على دعوتهم وروجوها بين العوام (٢) .

* * *

(١) المصدر السابق ؛ ص ١٢ .

(٢) انظر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ؛ ص ٩٧ - ١٠٠ . طبع مكتبة الكليات الأزهرية .

١- التجسيم والتشبيه عند الشيعة

وراجت بين بعض فرق الشيعة آراء خالصة في التجسيم والتشبيه في ذات الإله ، على يد كبار مشايخهم كهشام بن الحكم^(١) وهشام بن سالم الجواليقي^(٢) ، الذي نسج على منواله في التشبيه ، يقول الشهرستاني في الملل والنحل : « وكان هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة ، وجرت بينه وبين أبي الهذيل مناظرات في علم الكلام ، منها في التشبيه ، ومنها في تعلق علم البارئ تعالى^(٣) :

حكى ابن الراوندى (ت ٢٩٨هـ) عن هشام أنه قال : إن بين معبوده وبين الأجسام تشابهاً ما ، بوجه من الوجوه ، ولولا ذلك لما دلت عليه ، وحكى الكعبي (ت ٣١٩هـ) عنه أنه قال : هو جسم ذو أبعاد ، له قدر من الاقدار ، ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء .

ونقل عنه أنه قال : هو سبعة أشبار بشير نفسه ، وأنه في مكان مخصوص ، وجهة مخصوصة ، وأنه يتحرك ، وحركته فعله ، وليست من مكان إلى مكان^(٤) .

وقال : هو متناه بالذات ، غير متناه بالقدر . وحكى عنه أبو عيسى الوراق (ت ٢٤٧هـ) أنه قال : إن الله تعالى مماس لعرشه ، لا يفضل منه شيء عن العرش ، ولا يفضل من العرش شيء عنه^(٥) .

هذه هي صفة الله عند هشام بن الحكم الرافضى الشيعي في أواخر القرن الثاني الهجري ، وظل ذلك الحال قائماً في خلافة بنى العباس الذين وجدوا لأنفسهم فيها حظاً ثقافياً كبيراً ، وإن لم يكن لهم نصيب من الحظ السياسي مائلاً ، فتكون المذهب وظهرت آراؤهم في شكل متكامل ، فارقوا به أهل السنة من حيث لا رجعة في عدة أمور أساسية ، منها الغلو في التشبيه والتجسيم .

(١) هو أبو محمد : متكلم مناظر كان شيخ الإمامية في وقته ، صنف كتباً منها «الإمامة» ، و«القدر» توفى نحو ١٩٠هـ / نحو ٨٠٥م ؛ راجع الفهرست لابن النديم ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) هو مولى بشر بن مروان ، كنيته أبو محمد ، وأبو الحكم : كان من سبى الجوزجان روى عن الإمامين أبي عبد الله ، وأبي الحسن ، وهو من شيوخ الرافضة . (راجع الفهرست ، ص ٢٠٥ ، والانتصار ، ص ٦) .

(٣) الشهرستاني : الملل / ١ ، ٢١٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، والفرق بين الفرق ؛ ص ٦٥ ،

(٥) المصدر السابق نفسه ، ومقالات الأشعري ؛ ١ / ١٠٢ .

أما تصور هشام بن سالم الجواليقي لربه ، فكان لا يقل تطرفاً وسماجة عن تصور صنم أو وثن في الجاهلية فقال : « إنه ، تعالى ، على صورة إنسان ، أعلاه مجوف ، وأسفله مصمت ، وهو نور ساطع يتلألأ ، وله حواس خمس ، ويد ورجل ، وأنف ، وأذن ، وفم ، وله وفرة سوداء ، هي نور أسود ، لكنه ليس بلحم ولا دم » . (١) هذا بالإضافة لآرائه الضالة في النبوة والإمامة التي أكمل بها فراه على الله .

ولم تكن هذه هي عقيدة الشيعة في ربهم وحسب ، بل تعدى غلاتهم المدى وقالوا بما هو كفر صراح ، فقالوا بالوهمية على وأبنائه ، وسائر أئمتهم بحلول الله فيهم كالسيبغة (٢) والباطنية (٣) .

* الغلاة : وغلاة الشيعة أخرجوا أئمتهم من حدود المخلوقية وحكموا .

فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفي الغلو والتقصير ، وترجع آراؤهم إلى تأثرهم بمذاهب الحلولية ، ومذاهب التناسخية ، ومذاهب اليهود والنصارى ، إذ شبهت اليهود الخالق بالخلق ، وفعلت النصارى العكس فشبهت الخلق بالخالق ، وكلا المقاتلين شرميين ، وتسربت هذه الشبهات المادية الخالصة والتصورات الأرضية إلى عقائد الشيعة الغلاة ، فتجاوزت وترخصت في فهمها حتى حكمت بأحكام الإلهية في حق بعض الأئمة .

ويقرر مؤرخوا المقالات أن التشبيه والتجسيم بالأصل هو وضعية شيعية ، ويرجع ذلك لتأثرهم بالمذاهب والأديان والفرق السالفة الذكر ، ولطبيعة التطرف التي جبلوا عليه أيضاً ، وإن خالف متأخروهم متقدميهم فعادوا إلى عقائد أهل السنة بعدما تمكن الاعتزال فيهم ، وذلك عندما استدركوا بالعقل ما فاتهم من تبني الخرافات والأساطير ، فوجدوا أن عقائد أهل السنة أقرب للمعقول ، وأبعد من التشبيه والحلول (٤) . ويمكن عرض بعض عقائد هذه الفرق الغالية ومنهم السبائية .

(١) الشهرستاني : الملل ١ / ٢١٧ ، وانظر الاسفرائيني : التبصير ٤ ص ٢٣ .

(٢) انظر الحديث عنها في البغدادى : الفرق بين الفرق ٤ ص ٣٣٣ ، وكذلك مقالات الإسلاميين ، ١ / ٨٥ .

(٣) انظر الحديث عنهم في عقائد آل محمد ، ص ٣ - ٨٢ ، والتبصير ٤ ص ٨٦ .

(٤) انظر الشهرستاني : الملل ١ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

السبائية وعقيدتها فى على ؛ كرم الله وجهه :

هم أصحاب عبد الله بن سبأ ، صاحب اليد الطولى فى الفتنة العثمانية ، والزعامة الثورية التى عمل على إشعال نارها وإزكائها بين الناس فى العواصم الإسلامية لتأليب الناس على الحكم والخليفة ، وتم له ما كان وكما خطط هو وأعوانه ، قالوا - أى المؤرخين - عنه مقالات عديدة أقربها للصحة أنه يهودى حاقد ، أراد إسقاط الدولة وتشويه العقيدة ، ولم يفلح فى الحالتين إلا أنه نجح فى تعكير الأجواء فلم تعد لصفائها ونقائها الأول أبداً .

انتهز فرصة تجمع على ، كرم الله وجهه ، بأصحابه وجثا على ركبته أمامه وقال له أنت أنت ، يعنى الإله ، فذهل الحاضرون وأنكر الإمام على ؛ كرم الله وجهه ؛ مقالته إنكاراً شديداً ونفاه من الكوفة ، وكانت عاصمة الخلافة حينئذ ، إلى المدائن عاصمة الفرس قديماً ، وعاصمة الولايات الشرقية فى الدولة الإسلامية فيما بعد .

أسلم وفى نفسه غرض خبيث ، وله سابقة فى عقيدته القديمة فقد كان يقول فى يوشع بن نون ، وصى موسى ؛ عليه السلام ؛ وخليفته فى بنى إسرائيل ، نفس مقالته فى على ، كرم الله وجهه ، كما كان أول من زعم بالنص ، بإمامة على ، عليه السلام ؛ ومن السبائية وعباءتها ظهرت كل فرق الغلاة (١) .

وبعد موت على خرج بمقالة أخرى وهى زعمه بأنه لم يموت ، ولكنه حى ففيه الجزء الإلهى ، ولا يجوز أن يستولى عليه ، وهو الذى يجئ فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً (٢) !

ويتفق فرق الغلاة على التناسخ والحلول وتأثروا فى ذلك بالمجوس المزدوكية ، والهند البرهمية ، والفلاسفة والصابئة ، ومذهبهم أن الله ، تعالى ، قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر فى كل شخص من أشخاص البشر ، وذلك بمعنى الحلول .

(١) انظر مقالته ؛ البغدادي : الفرق بين الفرق ؛ ص ٢٢٥ ، والمخرجاني : التعريفات ؛ ص ٧٩ .

(٢) انظر البغدادي : الفرق بين الفرق ؛ ص ٢٣٣ .

وقد يكون الحلول بجزء ، وقد يكون بكل ، أما الحلول بجزء فهو كإشراق الشمس فى كوة ، أو كإشراقها على البلور .

أما الحلول بكل ، فهو كظهور ملك بشخص ، أو شيطان بحيوان ، ومراتب التناسخ أربع : النسخ ، والمسخ ، والفسخ والرسخ ، وأعلى مراتبه الملكية أو النبوة ، وأسفل مراتبه الشيطانية أو الجنية^(١) فالنفوس الناقصة التى بقى شئ من كمالاتها ، فإنها تتردد فى الأبدان الإنسانية ، وتنتقل من بدن إلى آخر حتى تبلغ النهاية ، فيما هو كمالها من علومها وأخلاقها . فحينئذ تبقى مجردة مطهرة عن التعلق بالأبدان . ويسمى هذا الانتقال نسخاً .

وقيل : ربما تنازلت إلى الأبدان الحيوانية ، فتنقل من البدن الإنسانى إلى بدن حيوانى يناسبه فى الأوصاف ، كبدن الأسد للشجاع والأرنب للجبان ، ويسمى مسخاً .

وقيل : ربما تنازلت إلى الأجسام النباتية ، ويسمى رسخاً .

وقيل : إلى الجمادية كالمعادن والبسائط أيضاً ، ويسمى فسخاً^(٢) .

وهكذا نجد هذه الفرق الغالية قد نجحت إلى حد ما فى إقرار عقائد جديدة فى الوسط الإسلامى لم تكن موجودة من قبل ، وحاولت على نشرها وإشاعتها باسم الانتصار لآل البيت والتشيع لهم ، وهو ما يجعلنا لا نستبعد وجود أيدي مغرضة من وراء هذا الفكر تحقق سوء قصدها ومحاولة هدمها للإسلام دين ودولة فى العصر العباسى مما جعل الخلفاء والعلماء يقفون لهذا التيار بالمرصاد والمطاردة لزعمائه حتى انحصروا فى أماكن محدودة من العالم الإسلامى^(٣) .

* * *

(١) انظر ؛ الشهرستانى الملل ٢٠٥٤ وما بعدها .

(٢) انظر ؛ التفاتانى : شرح المواقيت ٢٤ / ٤٤٤ .

(٣) انظر رسالتنا عن الجوس والثنية ، طبع دار الآفاق العربية .

٢- التجسيم والتشبيه عند أهل السنة

أ - مقالة الكرامية : هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام (ت ٢٥٥هـ) وانتهى بآرائه إلى التجسيم والتشبيه ، وينص على أن معبوده على العرش استقراراً ، وعلى أنه بجهة فوق ذاتاً ، وأطلق عليه اسم الجوهر ، وأنه إحدى الذات ، إحدى الجوهر ، وإنه مماس للعرش من الصفحة العليا ، وجوز الانتقال والتحول ، والنزول عليه ، ومنهم من قال إنه على بعض أجزاء العرش ، وقال بعضهم : امتلأ العرش به ، وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق ، وأنه محاذ للعرش .

وقالت فرقة منهم تسمى العابدية : إنه بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لو قدر مشغولاً بالجواهر لاتصلت به ، وقال محمد بن الهيصم^(١) : إن بينه وبين العرش بعداً لا يتناهى ، وإنه مباين للعالم بينونه أزلية ، ونفى التحيز والمحاذة ، وأثبت الفوقية والمباينة^(٢) .

وأطلق أكثرهم لفظ الجسم عليه ، والمقاربون منهم قالوا : نعنى بكونه جسماً أنه قائم بذاته ، وهذا هو حد الجسم عندهم ، وبنوا على هذا أن من حكم القائمين بأنفسهما أن يكونا متجاورين أو متباينين ، ففضى بعضهم بالتجاور مع العرش ، وحكم بعضهم بالتباين ، وربما قالوا :

كل موجودين ، فإما أن يكون أحدهما بحيث الآخر ، كالعرض مع الجوهر ، وإما أن يكون بجهة منه ، والبارى ، تعالى ، ليس بعرض إذ هو قائم بنفسه ، فيجب أن يكون بجهة من العالم . ثم أعلى الجهات وأشرفها جهة فوق ، فقلنا هو بجهة فوق بالذات حتى إذا رؤى من تلك الجهة^(٣) .

ثم لهم اختلافات فى النهاية . فمن الجسمة من أثبت النهاية له من ست جهات ،

(١) انظر ترجمته فى لسان الميزان ٥٤ / ٣٥٤ .

(٢) ابن أبى الحديد يستبعد هذه المقالة الساذجة من ابن الهيصم وقال إنه كان أذكى من أن يذهب عليه فساد هذا القول ، راجع شرح نهج البلاغة ١٤ / ٢٩١ .

(٣) يحتاج القائلون بالجهة لتغيير معتقدتهم بعد أن أثبت العلم أن جهة فوق غير متعينة مع كروية الأرض !..

ومنهم من أثبت النهاية له من جهة تحت ، ومنهم من أنكر النهاية له فقال : هو عظيم» (١) .

ويأتى بعد ذلك مدرسة مقاتل بن سليمان (٢) أو المقاتلية بخراسان وهى بيئة كانت خصبة لانتشار التشبيه والتجسيم ، وقد تأثر مقاتل بالثقافات الشرقية وظهر ذلك فى آرائه كالديصانية والمرقونية والمزدكية ، وكذلك تأثر باليهود وموقفهم المادى من الألوية عند تناوله لقضية الصفات ، ولمقاتل تفسير مملوء بآرائه وقد انتشرت وازدهرت مدرسته بين العامة الذين استهوتهم هذه الآراء ، المشحونة بالتجسيم (٣) .

وكان للدعوة إلى التشبيه والتجسيم أثر واضح فى القول بالحلول والاتحاد بعد ذلك عند الحلاج (٤) ، وأبى حلمان الدمشقى ، وأبى عبد الله محمد بن سالم البصرى (٥) حتى وصلت إلى ابن عربى (٦) فى القرن السادس الهجرى فقال بالاتحاد ، وابن تيمية الحنبلى (٧) الذى كان ثمرة لآراء فلسفية خالصة وبيئة خصبة نبت فيها التشبيه ، وبين خرافات الصوفية التى سموها حقائق ، إلى ومزاعم المشبهة تأرجحت عقيدة التوحيد طويلاً .

جهم بن صفوان :

وكما أن لكل فعل رد فعل مساو له ، ومقابل له فى تطرفه ، ظهر فى الجانب الآخر جهم بن صفوان (ت ١٢٨ هـ) ، فأسرف فى النفسى والتعطيل ليصرف عن التصور الإلهى أى تجسيم أو تشبيه بخلقه ، فنفى كونه حياً عالماً ؛ لأنهما من صفات

(١) انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ١ / ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى ، أبو الحسن من اعلام المفسرين ت ١٥٠ هـ راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ؛ ٢ / ١١٢ .

(٣) البغدادي : تاريخ بغداد ١٣٤ / ١٦٠ .

(٤) هو الحسين بن منصور الحلاج ، أبو المقيت ت ٣٠٩ هـ .

(٥) محمد بن أحمد بن سالم ت ٢٩٧ هـ .

(٦) أبو بكر محمد بن على بن محمد بن عربى ، الحافى الطائى الأندلسى ، محى الدين بن عربى ت ٦٣٨ هـ .

(٧) أبو العباس تقى الدين ، ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرانى الدمشقى الحنبلى

ت ٧٢٨ هـ .

الخلق ، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً ؛ لأنه لا يوصف أحد من خلقه بشئ من القدرة والفعل والخلق !.. (١)

ويعلل الملطى (ت ٣٧٧ هـ) سبب تسمية الجهمية بهذا الاسم بقوله : « .. لأن الجهم بن صفوان كان أول من اشتق هذا الكلام من كلام السمنية ، صنف من العجم بناحية خراسان ، وكانوا شككوه فى دينه ، حتى ترك الصلاة أربعين يوماً ، وقال : لا أصلى لمن لا أعرفه ، ثم اشتق هذا الكلام ، وبني عليه من بعده » (٢) .

ويذكر الملطى بعض مقالات الجهمية التى أنكرها فيقول :

١- منهم صنف من المعطلة ، يقولون : إن الله لا شئ ، وما من شئ ، ولا فى شئ ، ولا يقع عليه صفة شئ ، ولا معرفة شئ ، ولا توهم شئ ، ولا يعرفون الله ، فيما زعموا ؛ إلا بالتخمين فوقعوا عليه اسم الألوهية ، ولا يصفونه بصفة يقع عليه الألوهية ..

وحقيقة لقد غالت هذه الفرقة فانكرت ما علم ضرورة من دين الله ، فالله شئ لا كالأشياء وهو مشياً الأشياء كما يقول القاسم بن إبراهيم (ت ٢٤٦ هـ) وغيره . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ .. الآية ﴾ [سورة الانعام ١٩] . وثبت فى الخبر قال رسول الله ، ﷺ ، : « ليستلنكم الناس عن كل شئ حتى يستلونكم : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ .. فقولوا : الله خالق كل شئ ، وقبل كل شئ ؛ وهو بعد كل شئ » (٣) .

ومن الجهمية من يبالغ فى النفى ولكن بشكل آخر إيجابى بعض الشئ فيقولون : إن الله شئ وليس كالأشياء ، لا تقع عليه صفة ولا معرفة ، ولا توهم ، ولا نور ولا سمع ولا بصر ولا كلام ، ولا تكلم وأن القرآن مخلوق ، وأنه لم يكلم موسى ولا يكلم قط ؛ وأن الله خلق قولاً وكلاماً ، فوق ذلك القول والكلام فى مسامع من شاء الله من خلقه ، فيلغه السامع عن الله بعد ماسمعه فسمى ذلك قولاً وكلاماً ؛ (٤) .

(١) انظر المقرئى : الخطط المقرئية ٢ / ٣٤٩ .

(٢) الملطى : التنبيه والرد : تحقيق الكوثرى القاهرة ١٩٩٣ م ص ٩٩ .

(٣) انظر المطرئى : المغرب ١ / ١٠١ ، وما بعدها وانظر القاسم بن ابراهيم : المسترشد ؛ بتحقيقنا ؛ ص ٢٦ .

(٤) المصدر السابق ؛ ص ٩٦ ، ٩٧ .

وربما مال جهم إلى تنزيه الألهية من الصفات الإزلية ، لما شعر أنها توحى بالمشاركة مع المخلوقين ، ولما نظر فوجد أن أهمها صفة العلم قال بأن علم الله محدث ، ولم ينفه عن الله كما قال الملطى ، والذات لا توصف بصفة حتى لا يُرمى التوحيد بالكثرة ، وهذا العلم المحدث هو أحدثه ، ليعلم به ، إذاً هو أحدثه أى خلقه ، فهو غيره ، وبذلك تخلص من مآزق ذات واحدة وصفات متعددة ، فهى واحدة من وجه متكثرة من وجه آخر ينافى التوحيد ، ولم يحتج للقول بأنها عين الذات أو قول الأشاعرة لا هى الذات ولا هى غيرهما فى إلغاز محير .

كذلك توحى الصفة القديمة بالتغير والتحول وهما محالان على الله ، فكيف يمكن الجمع بين الأزلية والبقاء ، التغير والتحول فى آن واحد ؟ فضلاً عن أن الصفات لها تعلق بالحوادث فالعلم له تعلق بالمعلوم من جهة وتعلق بالعالم من جهة أخرى ، وبتعدد العلم يتعدد المعلوم ، وهكذا وجد الجهم نفسه أمام مشاكل فلسفية لم يقو على تحملها أو حل مشكلها ، وغرق غيره لأذنيه عندما أخطأ فى فهمها فوقع فى التشبيه والتجسيم ، فبالغ هو فى النفى .

لقد رغب الجهم فى تنزيه الله عن كل تغير أو تعلق بالحوادث ، ووجد فى العلم والإرادة والقدرة تعلق بالحوادث ، فالعلم غير المعلوم ، والقدرة عن المقدور ، والإرادة غير المراد ، وتوهم تعدد الذات إن كانت هى العلم والقدرة والإرادة أو موصوفة بها على وجه الأزلية والقدم بالتعدد ، والتغير وجوداً وعدماً ، وهو ما لا يليق بالله مطلقاً ، كما أنها مقالة تعنى كون الذات محلاً للحوادث وهو لا يجوز على الله ، هكذا تصور وانتهى إلى ما انتهى إليه ، وكلا الاتجاهين جانب الصواب .

حرص السلف على تنزيه الذات من لوث المشبهة والمجسمة ، فكان لهم منهج محكم يردون فيه المتشابه إلى المحكم ، فى ظل ما يفهم من اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وبعيداً عن الإغراق فى التشبيه أو الإغراب فى التأويل ، ولعل هذا ما مال إليه بعض علماء الإسلام فلجأوا إلى التفسير البياني لآيات القرآن الكريم فى وسطية محمودة ، وأخذ يحيى بن حمزة العلوى بهذا المنهج وآثره على غيره فى رسالته الجواب الناطق فى تنزيه الخالق (١) .

(١) انظر الرسالة بتحقيقنا ، وطبع دار الآفاق العربية .

ولكن ما لا يفهم من ذلك هو إثبات أهل السنة آيات الصفات الخبرية كما هي ، دون تأويل ، خاصة الأوائل منهم كالأشعري^(١) صاحب المذهب ، وتمسكهم بمقالة مالك^(٢) أن الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وهي في حد ذاتها مقالة فلسفية تنتهى إلى القول بالتشبيه الخالص ، فلا معنى للقول بأن لله يد ولكن ليست كأيدنا أو رجل ولكن ليس كرجلنا ، أو نفس ولكن ليست كنفوسنا ، فتصور هذه الصفات ، مجرد تصورها ، وتوهمها ، يعنى وجودها ولكن على كيفية لا يعرفها الإنسان !..^(٣)

وكان هذه المقالة فى ضلالها تجمع بين التشبيه من جهة والتنزيه من جهة أخرى ، فى تناقض عجيب ، سلم به بعض الدارسين ، إرضاء لأنفسهم أو لبعض المتأخرين لإغراض فى صدورهم الله يعلمها ، بعيدة عن روح الحق والعلم .

فالله ليس له شكل ولا مثل ولا شبيه ، ولا يقارن بماديات أو حسيات مثلنا أو غير مثلنا ؛ لأن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى الآية ١١] .

وذم أهل السنة الانحراف عند كل من المشبهة الانحراف عند كل من المشبهة والمجسمة جميعاً ، وعدوا تصوراتهم باطل قبيح ، وتجاوزا عن سواء القصد والسبيل فقالوا : « قد وقع قوم فى تشبيه ذاته بذات المخلوقين ، فوصفوه بالحد والنهاية والكون والمكان ، وأقبح قولاً منهم من وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بصره فى حدقة ، وسمعه فى عضو ، وقدرته فى يد .. إلى غير ذلك ، وقوم قاسوا حكمه على حكم عباده ، فقالوا : ما يكون من الخلق قبيحاً فمنه قبيح ، وما يكون من الخلق حسناً فمنه حسن !! .. وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه ، والحق مستحق للتنزيه دون التشبيه ، مستحق للتوحيد دون التحديد ، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل »^(٤) .

وأهل السنة لم يفرقوا بين الذات ووصفها ، والذات وفعلها ، وجعلوا الأمر

(١) على بن إسماعيل بن إسحاق مؤسس المذهب الأشعري ت ٣٢٤ هـ .

(٢) الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبجى صاحب الموطأ وإمام دار الهجرة ، وصاحب المذهب المعروف ت ١٧٩ هـ .

(٣) راجع الأشعري : الإبانة ؛ ص ٨٥ - ٩٤ .

(٤) القشيري : اللطائف ؛ ٣٤ / ٣٤٥ .

كله قصة واحدة ، وقياس الأفعال الإلهية على أفعال مخلوقيه من باب التقريب الجائز ، ومرد ذلك إلى حكم الله ، تعالى ، حيث يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .. ﴾ (١) ، ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ (٢) ، ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٣) ، ﴿ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (٥) ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (٦) ، ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٧) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٨) وغير هذه الآيات كثير ، فهل يعقل أن يخالف الله ما أمر ، وقد أشار إلى أن ذلك لا يحدث منه ثم يقول بعض خلقه إن القبيح من أفعاله والظلم من أفعاله ليس بقبيح ولا ظلم؟! يبدو أن ذلك شطط التنزيه المبالغ فيه والذي يتجاوز الممكن والمعقول ، ولا يوافق نصاً ولا غيره .

وكان يلزم من تقديس الفعل الإلهي عند أهل السنة أن ينزهوه عن فعل القبيح ، إلا أن العكس هو الذي حدث ، فجعلوا القبيح في فعله ليس بقبيح ، وهذا يعني أن للقبيح معنيين ، معنى يخص الله ، وآخر يخص العبد ، ففعل الشر من الله ليس بقبيح ، ومن الناس قبيح ، وهو أمر غريب ، ارتضوه لأنفسهم وجادلوا عنه .

ونحن لا نسلم للمعتزلة شططهم في القياس ، واعنى به قياس الغائب على الشاهد ، والخالق على خلقه ، والذي تعدى حدوده في قياس الأفعال إلى قياس الصفات (٩) ، وغاب عنهم تقدير الاعتبارات الإنسانية والمقاصد والدواعي ، وكلها أشياء فارقة بينهم وبين خالقهم في فعله وسنحاول تناول هذه القضية فيما بعد (١٠) .

ويضرب البغدادي للمشبهة (١١) مثلاً بأنه لا فرق بين من يشبه ربه بصفات حية مادية إنسانية ، ومن يعبد إنساناً مثله ، أو يعبد صنماً ، وهو محق في كلامه .

أما القشيري فيعد ذلك إلحاداً في آيات الله وأسمائه وصفاته ، فأهل التمثيل زادوا

(٥) سورة النساء : الآية ١٢٢ .

(٦) سورة النساء : الآية ٨٧ .

(٧) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٨) سورة يونس : الآية ٤٤ .

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٧٣ .

(٩) انظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ؛ ص ٥٦٤ . طبع مكتبة وهبة - القاهرة .

(١٠) انظر ابن رشد : مقدمة المناهج ؛ ص ١٣٩ . طبع مكتبة الشباب - القاهرة .

(١١) انظر البغدادي : أصول الدين ؛ ج ٣ ص ٣٣٧ .

فألحدوا ، وأهل التعطيل أنقصوا فألحدوا ، والمعيار الصحيح والسليم عند النظر إلى أسماء الله وصفاته هو أن نقتصد بين الإفراط والتفريط ، وتتخذ منهجاً وسطاً لا ميل فيه ولا تطرف فلا تمثيل ولا تعطيل (١) .

رأى أبى حنيفة فى تيارى المشبهة والمعطلة :

لقد سقط المشبهة والمجسمة فى مأزق كبير لميلهم إلى السذاجة ونهيمهم عن النظر والاستدلال وإعمال العقل بالكلية فى معرفة ربهم ، ووقوفهم عند ظاهر النص وحسب ، وكذلك سقط المعطلة والجهمية عندما بالغوا وأفرطوا فى النفى السلبي والتأويل غير الرشيد .

وهكذا انتهى الأمر بظهور تيارات التشبيه (٢) والتجسيم فى العالم الإسلامى فى الوسط السننى متمثلاً فى مقاتل ومدرسته والحلاج ومدرسته والسلمى ومدرسته ، وفى الوسط الشيعى متمثلاً فى هشام بن الحكم ومدرسته وهشام بن سالم الجواربى ، ومن جاء بعدهم كمحمد بن الهيصم ، وعاصم بن خشيش ، أقول انتهى الأمر فى هذا الاتجاه إلى هذه الحال ، فظهر الاتجاه المقابل ، فأثرا فى البيئمة والمجتمع الإسلامى بشدة وأزكوا روح التطرف والجنوح فى العقائد ، فى بيئمة مفتوحة لا تضع قيوداً على الفكر ولا الثقافة ، ولذلك نجد الإمام أبى حنيفة (٣) يعلق تعليقاً مريباً يصور حقيقة الأمر بقوله : «أتانا من المشرق رأيان خبيثان : جهم معطل ، ومقاتل مشبهه» (٤) . وكان يذم مقاتل بشدة ، وينسب إليه تحريف العقائد .

إتهام المعتزلة بأنهم من النفاة :

تعود مؤرخو العقائد والفرق من أهل السنة كالبيغدادى (ت ٤٢٩هـ) والاسفرائينى

(١) الأشعرى : المقالات ١٤ / ٣٥٨ . تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد .

(٢) البيغدادى : تاريخ بغداد ٣٤ / ١٦٤ ، بيروت . د . ت .

(٣) النعمان بن ثابت بن زوطى التيمى بالولاء ، صاحب المذهب المعروف واقفه وأروع أهل زمانه ، رفض القضاء ومات بالسجن سنة ١٥٠هـ .

(٤) البيغدادى : تاريخ بغداد ٣ / ١٦٤ .

(ت ٤٧١هـ) والشهرستاني (ت ٥٨٠هـ) من إطلاق لفظ النفاة أو المعطلة على المعتزلة ، فهل هم نفاة للصفات حقيقة ؟

إن للمعتزلة رأى واضح فى الصفات ، ولم ينفوا الصفات بحال ، وسننظر إلى كلامهم ، وكلام غيرهم فيهم ، والغريب أن الزاعمين نفيهم للصفات ، يقرون بعد ذلك مذهبههم فى صفات الله وأراءهم ، ويأتون بتقسيماتهم للصفات !

يقول القاضى عبد الجبار^(١) : «إن صفاته - تعالى - إما أن تكون للذات أو لمعنى أو لا للذات ولا للمعنى» فكيف ينفىها من يقسمها هكذا ؟... ويقول بعد ذلك : «وجملة القول فى هذه الصفات أنها لا تخرج عن وجهين :- أحدهما : ما له متعلق ، نحو كونه قادراً حياً موجوداً ، وما يختص به لذاته من الصفة التى تقتضى هذه الصفات» . وهذا تقسيم آخر يدل على فهمهم لقضية الصفات .

وفى كتابه «الأصول الخمسة» يعقد فصلاً عن الكلام فى كيفية استحقاقه ، تعالى ، لهذه الصفات ، فيقرر أنها مسألة خلاف بين أهل القبلة ، والمتكلمون يقسمونها إلى صفات ذات ، وهى التى يوصف بها الله ، ولا يوصف بأضدادها كالعلم والقدرة والحياة ، وإما صفات معنى ، وهى التى يوصف الله بها معنى ، وإما صفات أفعال وهى التى يوصف الله بها وبأضدادها .^(٢)

ويختلف المعتزلة وغيرهم فى التقسيم :

١- فأبو على الجبائى^(٣) وهو من كبار المعتزلة يرى أنه ، تعالى ، يستحق هذه الصفات الأربع التى هى كونه قادراً عالماً حياً موجوداً لذاته .

٢- وأبو هاشم^(٤) يقول انه يستحقها لما هو عليه فى ذاته ، وذلك أنه فهم الصفات على أنها أحوال .

٣- أما أبو الهذيل العلاف^(٥) (ت ٤٣٥ هـ) ، وهو من أئمة المعتزلة وله مدرسة

(١) القاضى عبد الجبار : المحيط بالتكليف ٤ ص ١٠٧ . طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) المصدر السابق ٤ ص ١٠٨ .

(٣) محمد بن عبد الوهاب بن سلام ، أبو على الجبائى ت ٣٠٣ هـ .

(٤) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائى ت ٣٢١ هـ .

(٥) هو محمد بن الهذيل العبدى شيخ المعتزلة فى عصره ت ٢٣٥ هـ .

تعرف بالهذيلية ، ويعتبر أول من نظم قواعد الاعتزال ووضع أصوله ، يقول : إنه تعالى عالم يعلم هو هو ، وأراد به ما ذكره الشيخ أبو علي ، ولا يقصد بذلك أن العلم هو ذاته تعالى .

٤- ورأى سليمان بن جرير^(١) وهو من الصفاتية أنه ، تعالى ، يستحق هذه الصفات لمعان لا توصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالحدوث ولا بالقدم^(٢) .

٥- وقال هشام بن الحكم (ت ٢٧٩ هـ) وقد أشرنا إليه من قبل على أنه من كبار الشيعة المجسمة وغلاتهم ، قال : إن الله تعالى عالم يعلم محدث .

٦- أما الكلابية ، وهم أتباع عبد الله بن كلاب شيخ الصفاتية^(٣) ، فقالوا بأنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان أزلية وأراد بالأزلى القديم^(٤) ، ويعلق القاضي عبد الجبار على رأى الكلابية : « إلا أنه لما رأى المسلمين متفقين على أنه لا قديم مع الله ، تعالى ، لم يتجاسر على إطلاق القول بذلك » .

٧- وجاء بعد ذلك الأشعري وصرح بأن الله ، تعالى ، يستحق هذه الصفات لمعان قديمة^(٥) .

غير أن فلسفة المعتزلة حول الصفات دارت حول ما يثبت لله ، تعالى ، وما ينفي فثبتوا ما يليق بذاته ويعد مدحاً وكمالاً ، ونفوا ما لا يليق بذاته ويعد ذمماً ونقصاناً^(٦) .

لقد نظر المعتزلة إلى موقف غير الموحد من النصارى وغيرهم ، وكيف وقعوا فى التعدد والخرج ، وكذلك رأوا المشبهة والمجسمة وما بلغوه بجهلهم وتخبطهم ، ورجبوا فى تصفية تصور المسلمين للالوهية من كل أثر حسى ، وما لحقه من روايات المحدثين والقصاص من إسرائيليات .

(١) هو سليمان بن جرير الزيدى مؤسس السليمانية .

(٢) انظر ابن حجر : لسان الميزان ؛ ٣ / ٨٠ .

(٣) عبد الله بن سعيد التميمي ت ٣٤٥ هـ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ؛ ص ١٨٠ .

(٥) انظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

وربما تأثر المعتزلة بآراء فلسفية فى الموضوع ، كما يذكر الشهرستانى « اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة - يقصد العلاف - الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه » (١) .

إلا أننا نجزم بأن رأى المعتزلة فى الصفات إسلامى خالص ، جاء وليد حرصهم على نقاء التوحيد من التصورات المشبوهة ، وهم أقرب الفرق فى ذلك إلى العقل والنقل حيث أثبتوا الصفات ، وقالوا بأنها عين الذات ، وخلافهم بعد ذلك يتساوى مع خلاف غيرهم من المتكلمين ، بعداً وقرباً ، من حيث التفسير والتعليل أو حتى التأويل .

وعموماً كان لوسطية أهل السنة الأثر المحمود فى نفوس المسلمين ، وهم جملة علماء الأمة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين والصوفية وغيرهم ، والتصوير الإسلامى للالوهية قائم على التنزيه ويرقى عن التوهيم والتخييل : « ومهما تصور فى نفسك فالله ، عز وجل ، بخلافه » (٢) .

ويمتدح ابن تيمية الأشعرى فيقول : « أثبت الأشعرى الصفات الخبرية بالسمع ، وأثبت بالعقل الصفات العقلية التى تعلم بالعقل والسمع ، فلم يثبت بالعقل ما جعله معارضاً للسمع ، بل ما جعله معاضداً له ، وأثبت بالسمع ما عجز عنه العقل » (٣) .

وبالغ المعتزلة فى ذمهم لأهل السنة فى مسألة الصفات ، لقولهم بأزليتها وقدمها ، ولقولهم ببعض الصفات التى يوصف بها خلقه كالموجودية والشئ والواحد والذات والمعلوم والمتكلم والباقي ، ولا نزاع فى أن مثبت هذه الصفات من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم ليس بمشبه ولا يقال عليه ذلك .

غير أننا نرجع خطأ المعتزلة إلى المنهج ، فقد أفرطوا فى استخدام القياس ، وكذلك أفرطوا فى التجريد وهو ما جعلهم يميلون إلى الوصف السلبي ، فاتهموا بالنفى وبأنهم

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، ١ / ٦٤٠ .

(٢) انظر : 189 ، John Alden : Islam .

(٣) ابن تيمية : تعارض العقل والنقل ، ٧ / ٩٧ تحقيق د / رشاد سالم .

يعبدون وهماً ! قال الرازى (ت ٦٠٦ هـ) فى أساس التقديس : « إن المشابهة من بعض الوجوه ، لا توجب أن يكون قائله موصوفاً بأنه شبه الله تعالى بالخلق ، وبأنه مشبه » (١) .

والآن نود أن نستعرض فكر المتكلمين فى الصفات السلبية ومدى وضعهم لاسس يتعرفون بها على الألوهية ، وبدلاً من أن يلجأوا إلى الإثبات لجأوا للنفى ، فما تعليل هذه الظاهرة !؟ .

* * *

(١-) الرازى : أساس التقديس ؛ ص ٢٥٦ . طبع مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .